مجلة اتحاد الجامعات العربية
العدد السابع عشر
محرم ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م

بحث :

الطب العربـــــي

الدكتور ابراهيم بيومي مدكور

الطب العربي

الدكتور إبراهيم بيومى مدكور

لم يبق اليوم شك فى أن هناك طبًّا عربيا ، عرف بمنهجه وموضوعه ، واشتهر بآرائه ونظرياته . وقام على أمره نفر من كبار الأطباء ، ووضعت فيه بحوث ومؤلفات تعد بين المؤلفات الطبية الهامة فى التاريخ قديمه وحديثه ، واعتبرت ثروة بشرية أفادت منها ثقافات مختلفة ، أخذ هذا الطب وأعطى ، أخذ عن طب اليونان ، وعن بعض البحوث الطبية فى فارس والهند ، وأضاف إليها ما أضاف ، وأضحى طبا عربيا خالصا .

ثم أعطى الثقافات المعاصرة له ، من سريانية ، وعبرية ، ولاتينية ، وأفادت منه ما أفادت . عمّر طويلا ، فقد ظهر فى القرن الثامن الميلادى ، وامتد إلى التاريخ المعاصر . درس فى بعض المعاهد الاوربية إلى القرن السابع عشر ، وكان عماد الدراسات الطبية فى بعض المعاهد العربية إلى أخريات القرن الماضى ، ولا يزال يعول عليه حتى الآن فى باكستان . ويلاحظ كامل حسين بحق أنه فيما بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر الميلادى ، لم يعرف طب فى العالم إلا الطب العربى .

* * *

وسنتابع هذا الطب فى أصوله ومصادره ، فى نشأته ومراحل نموه ، فى مدارسه وكبار رجاله ، ثم نقف قليلا عند أثره وإفادة الغرب منه .

(أ) أصوله ومصادره

كان للعرب فى جاهليتهم تطبيب ووصفات علاجية اكتسبوها من تجربتهم الخاصة ، أو استمدوها من تجارب جيرانهم . وكان لهم ولوع ببعض الحشائش والعقاقير ، كالشيح والقيصوم . وامتد قدر من هذا إلى صدر الإسلام ، ولم ير المسلمون غضاضة فى أن يفيدوا منه ، وزادت الفتوحات الإسلامية هذه الثروة

التقليدية ، وأضافت إليها تجارب شعوب أخرى . إلا أن هذا كله لا يعد من علم الطب فى شىء ، وما أشبهه بما نسميه «الوصفات البلدية» التى لا تزال تحيا بيننا إلى اليوم . ولم يبدأ البحث الطبى المنظم لدى العرب إلا فى أخريات القرن الأول للهجرة ، ودفعته الحضارة الجديدة على أيدى العباسيين إلى الأمام شيئا فشيئا . فلم ينشأ الطب العربى دفعة واحدة ، بل نما وترعرع على مر الزمن ، وأخذ عن مدرستين طبيتين سابقتين ، هما مدرسة الإسكندرية ، ومدرسة جنديسابور .

١ ـ مدرسة الإسكندرية

ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وعُمِّرت إلى القرن السابع الميلادى . خلفت مدارس بلاد اليونان ، وربطت الشرق بالغرب ، وكانت ملتقى ثقافات مختلفة . غرس فيها البطالمة من قديم روح البحث العلمى ، برغم ميلهم إلى النعيم والترف . فأنشأوا مكتبتها الكبرى الشهيرة ، ومعهد العلوم (الموسيون) الذى قام على أمره زمنا استراتون الرئيس الثانى للمدرسة المشائية . وفى هذا المعهد درست الهندسة والفلك ، والطب والتشريح . وامتدت هذه الدراسات إلى التاريخ الميلادى ، بل إلى الفتح الإسلامى . ومن الثابت أن خالد بن يزيد الأموى (٧٠٤) حاول أثناء ولايته على مصر فى أخريات القرن السابع الميلادى أن يترجم بعض الكتب الطبية والكيميائية ، وزاد الأخذ عن مدرسة الإسكندرية فى القرنين التاليين .

وطب مدرسة الإسكندرية فى أساسه جالينوسى ، وفيها قام أنقيلاؤس ، وهو زعيم المدرسة الطبية ، بجمع كتب جالينوس فى ستة عشر جزءا ، سميت «المجموعة الجالينوسية» وقد عنى العرب بالبحث عن هذه المجموعة وترجمتها إلى العربية ، واضطلع بذلك خاصة حنين بن اسحق (٨٧٧ م) زعيم المترجمين فى الإسلام . والواقع أن طب جالينوس (٢٠٠ م) ، فى أساسه ، إحياء لطب أبقراط (٤٦٠ ق . م) ، وأخذ بمبادئه ، وشرح وتوضيح له ، وإن اختلف عنه فى بعض القضايا . وأضاف إليه جديدا ، وخاصة فى التشريح . وقد تأثر به الأطباء العرب أكثر مما تأثروا بطب أستاذه الأول . وفى مدرسة الإسكندرية تربى أطباء مشارقة أخذ عنهم العرب ، أمثال سرجيوس الرسعنى أو الرأس عينى (٦٩٤ م) . وغذت تعاليمها

بعض المدارس الدينية الشرقية القديمة فى الرها ، ونصيبين ، وإنطاكية .
فغذى طب الإسكندرية الطب العربى بأوفى نصيب .

٢ ـ جنديســابور

هى تلك المدينة الفارسية التى أسسها سابور الأول (٢٧٢ م) ، وأسكن فيها أسراه من بعض الشعوب اليونانية . وازدهرت فيها مدرسة طبية منذ القرن الخامس الميلادى أيام كسرى أنوشروان . وجمع طبها بين التجارب الهندية الفارسية والنظريات ليونانية ، فأفادت من البحث النظرى والدراسة العملية فى مستشفاها الكبير. وامتدت إليها الفتوحات الإسلامية على أيدى أبى موسى الأشعرى (٦٥٧ م) فى عهد عمر بن الخطاب (٦٤٤ م) . ويظهر أن أمرها لم يخف على العرب قبل الإسلام ، فقصدها بعضهم ، وتعلم الطب فيها ، وأخصهم الحارث بن كلده (٦٧٠) الذى يمكن أن يعد طبيب الإسلام الأول ، ويقال إن النبى (ﷺ) كان يأمر من به علة أن يذهب إليه ويتطبب عنده .

ولكن شأن مدرسة جنديسابور الطبية لم يذع ولم يعل إلا فى صدر الدولة العباسية ، وعلى أيدى الخليفة المنصور (٧٧٥ م) بوجه خاص ، وقد استدعى جرجيس بن بختيشوع (٧٧٠ م) رئيسها وشيخ أطبائها . وقدر له ولأبنائه وأحفاده من بعده أن يقضوا نحو قرنين فى حظوة لدى الخلفاء والأمراء العباسيين ، فكان منهم الوزراء ، وأطباء البلاط ، والمشرفون على المستشفيات ، وأساتذة الطب والمترجمون . وعلى رأسهم جبريل بن بختيشوع (٨٣٠ م) ، وقد نال حظوة كبرى لدى الرشيد (٨٠٣ م) الذى قال لأصحابه يوما : «من كانت له حاجة ، فليخاطب فيها جبريل ، لأنى أفعل كل ما يطلبه» وانضم إلى آل بختيشوع أطباء آخرون من جنديسابور ، وفى مقدمتهم يوحنا بن ماسويه (٨٥٧ م) رئيس بيت الحكمة ، ومدير مستشفى بغداد فى عهد المأمون ، وأستاذ حنين بن اسحق . **فوضعت جنديسابور اللبنة الأولى فى بنيان الطب العربى ، وأتمت الإسكندرية هذا البنيان وشيدته .**

(ب) نشـــأته ونمـــوه

مر الطب العربى بمراحل ثلاث ، أسلمت كل واحدة منها إلى الأخرى ، وهى على التوالى : مرحلة النشأة والتكوين ومرحلة الشرح والتلخيص ، ومرحلة التحليل والتجربة

١ ـ مرحلـــة النشـــأة والتكويـــن

هى مرحلة الرواد والمترجمين ، بدأت فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، وامتدت إلى القرن التاسع . دعا إليها المنصور ، وعززها الرشيد والمأمون . بدأت فى بغداد ثم لم تلبث أن أرسلت أضواءها على بعض المدن الأخرى . أخذت عن الثقافات السابقة ، وعولت بخاصة على الثقافة اليونانية . ولقد عنى العرب بجمع أصولها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فبعثوا فى طلبها البعوث إلى القسطنطينية والإسكندرية ، ولم يفتهم أن يبحثوا عنها فى أماكن أخرى . ونظموا حلقات ومدارس للترجمة ، وأهمها مدرسة حنين بن اسحق التى تخصصت أو كادت فى ترجمة الكتب الطبية . وتشهد هذه الحركة بتسامح لا نظير له فى ثقافة أخرى قديمة أو حديثة . فاشترك فيها النصارى من نساطرة ويعاقبة ، واليهود والصابئة ، إلى جانب المسلمين . وبرهنوا على أن العلم لا وطن له ، وأن طلبه لا يتعارض مع ملة أو دين . واستمدوا مترجميهم من أماكن مختلفة ، من جنديسابور كجبريل بن بختيشوع ، أو من الحيرة كحنين بن اسحق ، وابنه اسحق (٩١١ م) ، أو من حران كثابت بن قرة (٩٠١ م) .

أسهم هؤلاء جميعا فى ترجمة الكتب الطبية ، إلى جانب آخرين ، أمثال : يوحنا بن ماسويه ، وحبيش بن الأعسم الدمشقى (القرن التاسع م) ، وعيسى ابن يحيى بن ابراهيم (٨٣٠ م) ، وقسطا بن لوقا البعلبكى (٩١٢ م) . ترجموا عن الفارسية والهندية ، أو عن السريانية التى كانت لغة العلم فى المدارس الدينية الشرقية قبل الإسلام ، وقد ترجم إليها قدر من الأصول اليونانية . وفى عصر المأمون حاول العرب أن يتداركوا ما فات السريان ، فصححوا أخطاء الترجمات القديمة ، وعولوا على الأصول اليونانية ، وترجموا منها مباشرة إلى العربية . عرفوا كثيرين من أطباء اليونان ، وعنوا خاصة بأبقراط ، وجالينوس . فترجموا للأول «العهد» المعروف ، «وكتاب الفصول» ، «وكتاب الأخلاط» ، «وكتاب الماء والهواء» ، وربما نسبوا إلى

أبقراط ماليس من صنعه . وحرصوا على أن يترجموا مع هذه النصوص شروح جالينوس لها ، وتعليقه عليها . وقد تخصص حنين بن اسحق فى مؤلفات جالينوس . جد فى جمعها وألف أسلوبها بحيث استطاع أن يحكم على النص إذا كان بقلم جالينوس أو منحولا . وجند حوله تلاميذ وأتباعا لمعاونته فى ترجمتها ، وجوّد ذلك ما وسعه . ومن أهم ما نقل منها إلى العربية : « المجموعة الجالينوسية » ذات الستة عشر جزءا ، و « التشريح الكبير » . « وكتاب الأدوية المفردة » ، « وكتاب تركيب الأدوية » ولم يسلم جالينوس ، هو الآخر ، من كتب منحولة تعزى اليه .

وبهذا فتحت الترجمة على العرب أبواب الثقافات الكبرى ، وربطت الماضى بالحاضر . وعززت نهضة علمية نشيطة .

٢ ـ مرحلـــة التلخيص والشـــرح

وهى امتداد للمرحلة السابقة ، وتبدو واضحة فى القرن التاسع الميلادى . وقد اضطلع بها فى الأغلب المترجمون أنفسهم ، فلم يقنعوا بترجمة النصوص القديمة . بل لخصوها أو علقوا عليها . وراقهم لون خاص من التأليف سموه « مدخلا » فى الطب أو الكيمياء ، وكأنما حاكوا فى ذلك مدخل فورفوريوس الصورى فى المنطق (ايساغوجى) ، ووضعوا كتبا مجملة ، مثل : « كتاب الأغذية » ليوحنا بن ما سويه ، و « كتاب عشر مقالات فى العين » لحنين بن اسحق ، و « كتاب فردوس الحكمة » لعلى ابن رين الطبرى (القرن العاشر م) الذى جمع بين الطب اليونانى والطب الهندى . وإذا عرفنا أن عليا هذا كان أستاذا لأبى بكر الرازى (٩٣٢ م) أدركنا كيف مهدت هذه المرحلة للمرحلة الثالثة والأخيرة .

ومما يلفت النظر فى هذه المرحلة التى نحن بصددها انتشار المستشفيات أو البيمارستانات كما كانت تسمى ، وهذه التسمية نفسها تدل على أصل الفكرة . فالمستشفيات العربية محاكاة للبيمارستانات الفارسية ، وبخاصة بيمارستان جنديسابور الذى كان يديره جرجيس بن بختيشوع قبل انتقاله إلى بغداد . وقد تبارى الخلفاء والأمراء فى إقامة هذه المستشفيات ورعايتها ، وانتشرت فى العواصم الكبرى . كالرى ، وبغداد ، والقاهرة ، وتونس . ومن بينها البيمارستان المنصورى بالقاهرة الذى

سمى أيضا بيمارَستان قلاوون ، ولا تزال بعض آثاره باقية . وفى كل مستشفى أجنحة للرجال ، وأخرى للنساء ، والمرضى أنفسهم موزعون على حسب مرضهم فى أقسام خاصة فى الجراحة ، أو للأمراض الباطنية . وفى المستشفى أماكن لإعداد الطعام ، وأخرى لتركيب الدواء . وعرف الأطباء العرب نظام المرور على المرضى وتفقد أحوالهم ، كما عرفوا نظام المناوبة الذى يضطلع فيه كل طبيب بنوبة محددة ، وعرفوا أخيرا الاجتماعات العلمية (كونصلتو) لدراسة حالات مرضية معينة . ولم يغفلوا أمر التمريض ، وأسهمت فيه المرأة بنصيب ، وتولت على وجه الخصوص تمريض بنات جنسها . ويشير ابن أبى أصيبعة إلى شىء أشبه ما يكون بالعيادات الخارجية ، ويتحدث المؤرخون عن بعض المستشفيات المتنقلة فى الأسفار والحروب .

وصاحب هذا إقبال الطلاب على تعلم الطب إقبالا ملحوظا . وأفسح لهم المجال فى هذه المستشفيات التى كانت ميدانا واسعًا للمارسة والتجربة ، ونظم هذا التعليم ووضعت له قيود وشروط واضحة ، فلا يقبل فيه إلا من هم أهل له ، ومكنوا من الدرس والبحث تحت إشراف متصل . ولا يسمح لهم بمزاولة الطب إلا إن ثبتت كفايتهم ، وحصلوا على إجازة من المشرفين عليهم . وما أشبه هذه البيمارَستانات بمستشفياتنا الجامعية ، وقد تخرج فيها أعداد كبيرة ، ويكفى أن نشير إلى أن ببغداد وحدها كان فيها نحو ٨٠٠ طبيب فى أوائل القرن العاشر الميلادى .

فسبقت البيمارستانات الإسلامية فى نظمها وإدارتها ، فى أقسامها وتخصصاتها ، فى دروسها العملية وتجاربها ، المستشفيات الحديثة بعدة قرون . وأعجب بها الغرب منذ عهد بعيد فى السلم والحرب ، وسعى إليها فى الأندلس لكى يحظى بما فيها من طب وعلاج .

٣ـ مرحلة الأصالة والابتكار

هى فعلا مرحلة النقد والتمحيص . والبحث والتجربة . والكشف والاختراع . **هى مرحلة الطب العربى فى صورته الكاملة ، وقد سميت بحق العصر الذهبى للطب العربى . بدأت فى القرن العاشر الميلادى ، واستمرت إلى نهاية القرن الثانى عشر . ظهر فيها أطباء أعلام ، منهم موسوعيون أحاطوا بالطب فى جوانبه المختلفة ، ومنهم**

متخصصون فى بعض الفروع كالجراحة وطب العيون . نقدوا كبار أطباء اليونان ، وأكملوا ما فاتهم وأصلحوا أخطاءهم . بحثوا وجربوا ، فكشفوا عن الجديد والمبتكر فى ميدان التشخيص والعلاج . ووضعوا كتبا ومؤلفات استرعت الأنظار ، وعدت حلقة هامة من حلقات الفكر الطبى فى التاريخ .

ومتى بلغت حضارة أوجها ، أخذت تتراجع شيئا فشيئا ، ولم تضف القرون الستة التالية للقرن الثانى عشر الميلادى إلى الطب العربى شيئا يذكر ، اللهم إلا اكتشاف الدورة الدموية الصغرى .

(جـ) مشـــاهيره وأعـــلامه

لسنا فى حاجة أن نشير إلى أن المسلمين عرضوا لفروع الطب المختلفة ، فوقفوا طويلا عند الأمراض الباطنية والجهاز الهضمى ، والجهاز التنفسى ، وأمراض القلب ، والجهاز العصبى . وشغلوا بالجراحة والتشريح ، وأمراض النساء ، وأمراض الفم والأسنان ، وعنوا بأمراض العين عناية فائقة ، ونبغ فى كثير من هذه الفروع أئمة أعلام . والطب عند العرب مربوط بالصيدلة برباط وثيق ، وما أجدر الصيدلة العربية أن يوقف عليها بحث خاص . وأكتفى بأن أشير إلى أن لهم فى العقاقير والأقرباذين باعا طويلا . و «مفردات ابن البيطار» (١٢٤٨ م) وحدها تشمل نحو ألف وأربعمائة نوع ، ولم يسبقه أحد إلى وصف ثلثمائة منها ، وقد ترجم الكتاب كله إلى اللاتينية وأفاد منه العالم الغربى .

ولا سبيل لأن نقف هنا عند كبار أطباء الإسلام جميعا ، ونكتفى بأن نعرض لبعض مشاهيرهم ، وبخاصة من امتدت آثارهم إلى الحضارة الغربية ، وراعينا فى عرضهم التدرج الزمنى .

١ ـ أبو بكر الـرزاى (٩٣٢ م)

طبيب وفيلسوف ، وهو دون نزاع طبيب الإسلام الأول ، وجالينوس العرب كما سمى . جمع بين العلم والعمل ، بين النظرية والتطبيق . درس الطب اليونانى دراسة وافية ، ووقف من الفاضلين أبقراط وجالينوس موقف التأييد تارة والمعارضة تارة أخرى ، أخذ عنهما واستدرك عليهما . وكان يعيب على أبقراط إيجازه وغموضه .

وعلى جالينوس إطنابه وإسهابه ، وهو بلا شك فى مستواهما إن لم يزد عليهما . أدار مستشفين كبيرين فى الرى وبغداد زمنا طويلا ، شخص فيهما أدواء كثيرة ، ووصف لها دواءها ، وقام بتجارب تجل عن الحصر . لاءم بين طب القياس وطب التجربة . ورسم منهجا واضحا فى تشخيص الداء ، يستقصى فيه أعراض المرض ، أو «العلامات» كما يسميها ، ويرتب هذه العلاقات بحسب اهميتها ويقارن بعضها ببعض . وهو دون نزاع من أعلام الطب الإكلينيكى فى التاريخ . وفى كتابه «الحاوى» خير شاهد على ذلك ، ويقع فى اثنين وعشرين جزءا ، ويشتمل على مئات من مشاهدات وتجارب لا تخلو من دقة وطرافة ، وقد ترجم إلى اللاتينية منذ عهد مبكر ، وله كتاب آخر أوضح ترتيبا وأيسر تناولا ، وهو كتاب «المنصورى» الذى ترجم كذلك إلى اللاتينية . ووضع كتابا ثالثا باسم «الفصوص» ، محاكاة لأبقراط وجالينوس ، وعده مدخلا للصناعة وطريقا للمتعلمين . وليس الرازى الأستاذ بأقل شأنا من الرازى الطبيب فقد علم وربى ، وناقش واختبر ، وخرج جيلا من الأطباء المهرة ، وعرض فى كتابه «محنة الطبيب» لدقة المهنة وعظم مسئولية الأطباء .

ولن نقف هنا عند الرازى الفيلسوف الذى شغل المستشرقين أكثر مما شغلهم الرازى الطبيب ، ورحم الله كامل حسين الذى عرف له قدره بين الأطباء العالميين ، وكشف عن كثير من جوانبه ، وكم نأمل أن يتابع شباب الأطباء المسيرة وأن يحيوا تراث هذا الطبيب العظيم .

٢ ـ على بن عباس (٩٨٣ م)

ذرادشتى اعتنق الإسلام ، ولد فى الأهواز ، وأولع بدراسة الطب . وتتلمذ للرازى ، وكان أشهر تلاميذه . عاش فى حاشية بنى بويه زمنا . وصنف لعضد الدولة كتابا فى الطب سماه «الملكى» الذى عرفته اللاتينية ، ولعله أول ما ترجم إليها من كتب الطب العربى على أيدى قسطنطين الافريقى فى أوائل القرن الحادى عشر بعد موت مؤلفه بقليل .

الشهيرة التى قام ابن رشد (١١٩٨ م) بشرحها والتعليق عليها . وفى كتاب « القانون استيعاب ودقة ، وترتيب ووضوح ، وصادف فى الشرق والغرب نجاحا لم يصادف كتاب طبى آخر .

ترجم إلى اللاتينية منذ عهد مبكر ، وبقى يدرس فى جامعات أوربا نحو ست قرون ، من القرن الثانى عشر إلى السابع عشر ، وأعيد طبعه باللاتينية غير مرة ويقال إنه طبع فى القرن السادس عشر وحده عشرين مرة .

٥ ــ ابــن زهـــر (١١٦٢ م)

وليد أسرة أندلسية اشتهرت بالطب فى أجيال متلاحقة ، وأبو مروان أشهر أفرادها . عاصر ابن رشد وصادقه ، ووضع كتاب « التيسير فى المداواة والتدبير » . عرض فيه لبعض الأدواء كالتهاب الأذن الوسطى ، وشلل البلعوم ، ووصف عملية استخراج الحصى من الكلى . وعملية فتح القصبة الهوائية . اعتبر التجربة خير مرشد . وعده معاصروه أقرب الأطباء العرب من أبقراط فى تفكيره .

ترجم كتابه الى اللاتينية بعد موته بنحو ١٨سنة ، وأثر فى الطب اللاتينى تأثيرا ملحوظا .

٦ ــ ابــن النفيـــس (١٢٨٨ م)

زميل ابن أبى أصيبعة مؤرخ الطب العربى . ورئيس أطباء مصر فى القرن السابع الهجرى ، ومع ذلك بقى مغمورا عدة قرون . ولم يكشف عنه إلا فى آخر الربع الأول من هذا القرن ، حين اهتدى فى مكتبة برلين إلى مخطوط من أهم مؤلفاته الطبية . وهو « موجز القانون » . وقد أسهم الدكتور بول غليونجى فى هذا الكشف إسهاما واضحا ، ودفع شكوكا لا أساس لها حامت حول طبيبنا . فرد على الشبهة القائلة بأن ابن أبى أصيبعة أهمله ، وشرح فى وضوح الدورة الدموية الصغرى التى اهتدى إليها . والواقع أن ابن النفيس أولع بالتشريح برغم معارضة بعض رجال الدين له . ولم يؤخذ بما حققه جالينوس وابن سينا فى هذا المضمار ، وخرج على ما قالا به . وفسر الدورة الدموية تفسيرا لم يسبق إليه . فكان أول من فطن إلى وجود أوعية دموية داخل

عضلة القلب . وقال إن الدم يمر فى مسام دقيقة هى بمثابة الأوعية الشعرية ، ومهد بذلك لدورة هارفى الكبرى .

ومن الثابت أن كتاب « موجز القانون » الذى شرحت فيه فكرة الدورة الدموية الصغرى قد ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٤٧ م ، وأن متأخرى البادويين عرضوا لهذه الدورة . ومن الثابت أيضا أن هارفى (١٦٥٧ م) تتلمذ لهم ، ومن الجائز أن يكون قد وقف على شىء مما قال به ابن النفيس . ومهما يكن من أمر فإن كتابه « موجز القانون » قد وجد فى آخر المطاف طريقه إلى اللغة اللاتينية .

* * *

هؤلاء هم مشاهير أطباء العربية ، وقد ذاع صيتهم فى اللاتينية بدرجة لا تقل عما عرفوا به فى العربية ، ولا يزال تراثهم مهملا بيننا ، وما أجدرنا أن نحييه ، وأن نكشف عن هذه الكنوز الدفينة . وأذكر أنه طلب إلى منذ ثلاثين سنة أن أشرف على إخراج « كتاب القانون » لابن سينا إخراجا علميا دقيقا ، وآسف أنى لم أوفق لذلك .

(د) أثـره وموقف الغرب منـه

استلفت العلم العربى ، والطب بخاصة ، أنظار الأوربيين منذ القرن الحادى عشر . وقفوا على كثير من ثماره فى السلم والحرب ، فعرفوه سلما عن قرب فى صقلية والأندلس ، ولم يترددوا فى أن يعرضوا مرضاهم على أطباء العرب ، وأن يسعوا إليهم . وقضت الحروب الصليبية عليهم بأن يستعينوا بهؤلاء الأطباء ، ومن أمراء الصليبيين من اتخذ له من العرب طبيبا خاصا . وأدركوا أن العلم قوة ، فحاولوا أن يتسلحوا به ، وأن يفيدوا منه ما استطاعوا .

واتجهوا إلى ترجمة المراجع العلمية العربية منذ عهد مبكر ، وتوافرت لديهم منها ثروة يعتد بها . ولا يكاد يوجد مؤلف علمى عربى هام إلا ونقلوه إلى لغتهم ، ومن بين ما نقلوه ما فقدنا أصله العربى ، ولم يبق منه إلا الترجمة اللاتينية ، وسبق لنا أن أشرنا إلى بعض مترجماتهم الطبية . ولا تزال حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية إبان القرون الوسطى فى حاجة إلى درس أشمل وأكمل . وقد يترجم النص الواحد أكثر من مرة ، تبعا لاختلاف المترجمين ، أو رغبة فى التجويد والإتقان ، وعن طريق

هذه الترجمة سرت ألفاظ عربية إلى اللغة اللاتينية . وإذا كانت ترجمة قسطنطين الأفريقى (١٠٨٧ م) فى القرن الحادى عشر لم تكن دقيقة ولا وافية ، فقد تلتها ترجمات أخرى أدق وأكمل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وعنيت بها هيئات متعددة فى نابلى وبسالرم بايطاليا ، أو فى بلرم بصقلية أو فى طليطلة بالأندلس . وأنشئت معاهد لتعلم العربية واليونانية ، وأسست فى طليطلة مدرسة لتعلم العربية والعبرية ، وتخرج فيها ريمون مارتان الدومنكانى (ق ١٣ م) الذى كان على اتصال بالقديس توما الأكوينى (١٢٧٤ م) . وبعد هذا بقليل استطاع ريمون لول (١٣١٦ م) أن يقرر تخصيص كرسى للغات الأجنبية فى الجامعات الأوربية .

وطليطلة وبلرم أكبر مركزين للترجمة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . فى طليطلة جمع كثير من المراجع العربية ، وكان بيع المخطوطات فى ذلك العهد تجارة رائجة . وأعان على ذلك ألفونس الحكيم ملك قشتالة (١٢٨٤ م) الذى كان نصيرا للعلم والفلسفة ، وكان يريد بالقشتالية أن تصبح لغة عالمية . فنظمت جماعات للترجمة ، وعلى رأس كل جماعة مراجع أو مراجعون . وقد مر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة ، وعلى رأسهم جيرار الكريمونى (١١٨٧ م) ، ذلك الإيطالى الذى اجتذبته الترجمة ، فقصد طليطلة ، وعنى خاصة بالمراجع الطبية ، وترجم منها فيما يقال — نحو ٨٧ مؤلفا ، ولعله كان يشرف على نشاط جماعى يعاونه فيه آخرون .

وفى بلرم نشطت حركة الترجمة فى القرن الثالث عشر تحت رعاية الإمبراطور فردريك الثانى الذى شاء أن ينشر العلوم الإسلامية ، وكان على صلة بحكام الشرق وولاته ، واستطاع أن يجمع ثروة طائلة من المؤلفات العربية . ودعا إليه كبار المترجمين وفى مقدمتهم ميشيل اسكوت (١٢٣٥ م) ، تلك الشخصية شبه الأسطورية التى كانت مملوءة نشاطا وحركة ، والتى عزى إليها عدد غير قليل من المترجمات ، وما أشبهه بجيرار الكريمونى . فوزع العمل على التلاميذ والأعوان ، وتابع نشاطهم وراجع إنتاجهم . وقد حرص الإمبراطور فردريك على أن يوزع ترجماته على الجامعات الأوربية ، رغبة فى نشر العلم ، وبدافع من منافسة البابا فى الغالب .

وبعد الترجمة يجىء البحث والتمحيص . وقد حظيت بعض الكتب الطبية العربية فى أوربا ببحوث ودراسات متلاحقة ، وكان «كتاب القانون» لابن سينا أعظمها

حظا . فبلغ مكانة لا يدنو منها إلا كتب أبقراط وجالينوس ، وأقر البابا كليمنت الخامس (١٣١٩ م) أن يمتحن الطلبة إجباريا فى «قانون» ابن سينا ، وفى «المنصورى» للرازى للحصول على إجازة الطب . وتنافست الجامعات الأوربية فى الدراسات الطبية ، فعولت جامعة مونبلييه على كتاب «القانون» حتى منتصف القرن السابع عشر ، وحذت حذوها جامعة فيينا وجامعة فرنكفورت ، وتبنت جامعة بولونيا آراء ابن زهر . وسبق أن أشرنا إلى أن جامعة بادوا عرضت فى القرن السادس عشر لموضوع الدورة الدموية ، على نحو شبيه بما انتهى اليه ابن النفيس . واستمرت الفرماكولوجيا العربية سائدة فى أوربا حتى القرن التاسع عشر . وطبعت أجزاء من مفردات ابن البيطار بكريمونا عام (١٧٥٨ م) .

وفى وسعنا أن نقرر أن الطب الأوربى مدين للطب العربى فى القرون الوسطى وعصر النهضة ، بل فى التاريخ الحديث ، ولم يتردد منصفو علماء الغرب فى تقرير ذلك ، ونشير فقط إلى ما قرره سارتون ، وهو من أكبر مؤرخى العلوم المعاصرين فى أوربا وامريكا ، ويقول : «إنه لعمل عظيم أن ينقل العرب إلينا كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، على أنهم لم يكتفوا بهذا ، بل غذوها وسموا بها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة» .

* * *

خاتمـــة

فى ضوء ما تقدم نلاحظ أن الطب العربى خطا خلال أربعة قرون أو يزيد خطوات فسيحة ، ووصل إلى درجة مرموقة ، وهو دون نزاع أدق وأشمل من الطب القديم والمتوسط ، وقد مهد للطب الحديث ، وسبقه إلى بعض ما يباهى به . ومن الظلم أن يقاس بأقيسة الطب المعاصر الذى تهيأت له أسباب ووسائل لم تتهيأ لأطباء العرب ، على أن الطب المعاصر نفسه فى تطور مستمر ، وطب القرن العشرين يسمو دون نزاع على طب القرن التاسع عشر ، وفى كل يوم يكاد البحث الطبى يأتى بجديد ، ولم يخرج الطب العربى عن سنة هذا التطور بحال .

وقد أشرنا إلى أن هذا الطب احتفظ بتراث اليونان ، وهذا نفسه عمل جليل . ولكنه لم يقف عند مجرد حفظه ونقله ، بل عدله وصححه ، وأضاف إليه ما لم تضفه ثقافة أخرى فى التاريخ القديم والمتوسط . فكشف عن أدواء لم تكن معروفة ، وتفنن فى وسائل الدواء والعلاج ، وخطا فى الجراحة خطوات لم تكن يسيرة فى القرون الوسطى ، وبقيت الجراحة فى الغرب عالة عليه عدة قرون ، واستحدث أدوات جراحية لم تكن معروفة من قبل . وسما بالطب الأكلينيكى إلى درجة يفيد منها أطباء اليوم ، وما أجدرهم أن يقفوا عليه . وتوسع ما أمكن فى الكشف عن الحشائش والعقاقير الطبية ، وتوفر له منها زاد كبير . وعنى بالتمريض ، وقدم أمثلة رائعة فى تنظيم المستشفيات وإدارتها والإشراف عليها .

تدارك العرب على أبقراط وجالينوس مالم يسبق إليه أحد ، وطبيب كالرازى نقد أبقراط وهذبه أكثر مما صنع جالينوس . وإذا كان أطباء العرب قد سلموا بمبادئ لا نسلم بها اليوم ، ولم يتخلصوا تماما من نظرية الأخلاط اليونانية فإنهم أفسحوا للتجربة مجالا انتهى بالقضاء على هذه النظرية . ولا يزال قدر من مؤلفات الطب العربية يعد إلى اليوم بين أمهات الكتب الطبية ، وهو مخطوط ، وما أحوجه أن يبرز إلى النور .

مـــراجع

١ ـ ابن أبي أصيبعة ، عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ، دار الفكر ، بيروت ١٩٥٧
٢ ـ ابن جلجل ، طبقات الأطباء ، القاهرة ١٩٥٥ .
٣ ـ بول غليونجى ، قطوف من تاريخ الطب ، القاهرة ١٩٧٩ .
٤ ـ جمال الدين القفطى ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣
٥ ـ محمد كامل حسين ، موجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٨ .
٦ ـ محمد كامل حسين ، فى الطب والاقرباذين ، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية القاهرة ١٩٧٠ .
٧ ـ Browne, 1921. Arabian Medicine Cambridge, Cambridge.
٨ ـ Meyerhof. Science and Medicine in Legacy of Islam. 1947.